

# لماذا رؤية جديدة للتاريخ الإسلامي؟<sup>(\*)</sup>

سوء التفسير

ذات يوم كان حواراً حول الثقافة ، والتربية ، وبناء الإنسان المعاصر ، فقال محاورى فيما قال :.. إن التفسير الصحيح للمعارك والغزوات الإسلامية هو أن الخلفاء أرادوا أن يوجهوا المسلمين لمصارعة الدول المجاورة كي يشغلوهم عن النزاع القبلي ، ويلهروهم عن الخلافات الداخلية ، والصراع المذهبي ، ثم كانت الجزيرة العربية آنذاك مركزاً طرد للسكان ، فهي بذلك مهددة بالجوع ؛ فكان لابد من غزو جيранهم ، ونهب خيراتهم خوفاً من شبح الجوع !!!

كذا قال بنص !! ألفاظه تقريباً . وصاحبي هذا من ألمع موجهي وزارة التربية والتعليم .

هذا رأيه !! وهذا موقعه !! وصاحبي هذا ليس فرداً ولكنه نمط ، وللأسف هو النمط السائد الشائع بين كل متعلمينا ومثقفينا إلا من رحم ربك. وهم في الواقع مجننيّ عليهم وليسوا جناة ؛ فهم يُعطون ما أخذوا ، ويتكلمون بما قرأوا، ويعلمون بما تعلموا ..

(\*) كتبت في صيف سنة ١٩٧٠م ، على أثر مناقشة مع صديق كريم وأستاذ جليل جمعني به رحلة في سفر طويل ؛ وكان حديثنا طوال هذه الرحلة حول هموم أمتنا وهذا أحدها.

## موقفنا من الدراسات التاريخية والمؤلفات الموجودة حالياً:

نبادر فنقول : إننا لانتهم أحداً بالقصور ولا بالتقصير ، ولا نتشكك في نيات أحد ، ولا في دينه ، ذلك أن حُجَّتهم ظاهرة ، وعذرهم واضح ، فنحن محمكت الأمة الإسلامية لليقظة الحديثة تحرك أعداؤنا من دهاة المستشرقين ، ولثام المبشرين ، وأخذوا بزمام الفكر والرأي ، واقتعدوا مقعد التوجيه والإرشاد ، وقثلت خطورتهم في ناحيتين :

الأولى : أنهم كانوا أساتذةً للرعييل الأول من المؤرخين المسلمين. بل ما زالوا للآن يوجهون الدراسات التاريخية حسب هواهم ، وما زالت مؤلفات هؤلاء المستشرقين من أمثال : « جب » و « جولدتسيهر » و « براون » و « لان بول » و « ماكدونالد » ، وأضرابهم ، ما زالت للآن هذه المؤلفات هي أسخى المنابع وأشهاها للمؤلفين المسلمين، يلجئون إليها ، ويتبارون في تحلية كتبهم وتزيينها بأسماء هذه المؤلفات مراجع لهم .

والناحية الثانية : التي تمثلت فيها خطورة هؤلاء المستشرقين والمبشرين ، هي توجيههم لحركة إحياء التراث وبعثه ، فقد سلطت الأضواء على جوانب معينة من تاريخنا ، أريد لنا أن نراها ، وعلى مؤلفات معينة أريد لنا أن ندرسها ، ولك أن تحصي عدد طبعات كتاب الأغاني للأصفهاني ، وتعدّد المحاولات التي تمت لتجريده حيناً ، وتلخيصه حيناً ، وتقديم مختارات منه حيناً ، بل الدراسات والأبحاث التي تناولته شرحاً وتحليلاً ، وتجميعاً وتفريقاً ، وناهيك بتقدمه في الأثواب الجديدة من حلقات إذاعية ونحوها. وما يقال عن ( الأغاني ) يقال عن ( ألف ليلة وليلة ) والعناية به والاهتمام بإظهار قيمته حتى قرأ في بعض الأذهان - من طول الإلحاح واللجاجة في التكرار - أن صورة المجتمع الإسلامي في عصر الإسلام الزاهي كانت كما تراها في كتاب الأغاني ، وكما تصوّرها حكايات ألف ليلة وليلة.

هكذا سيطر الغزاة - كما قلنا - على حركة التدريس والتوجيه في مراكز الأبحاث والدراسات العليا، وعلى حركة الإحياء والبعث لتراثنا ، ومن هنا

كان عذر هؤلاء المؤرخين المحدثين من المسلمين، بل إننا نؤكد أن لبعضهم -برغم عبورة الطريق- محاولات جيدة كان لها آثار تستحق الشكر والتسجيل .

## معنى التاريخ :

ولعل من المناسب الآن أن نبين معنى التاريخ ، ليظهر لنا سرُّ الاهتمام بهذا الموضوع.

التاريخ في الحقيقة ليس مجرد سردٍ للأحداث ، مهما بُدلت الجهود لتحقيق تاريخ الأحداث وتوثيقها ، فذلك على ضرورته ليس هو علم التاريخ ، بل علم التاريخ هو تفسير الأحداث في عمقٍ ووعي ، حتى ندرك سر هذه الأحداث ، والروابط التي تربط بينها، فتتعرف على القانون التاريخي الذي يتحكم في سير الأحداث ، ويوجه دورات التاريخ.

## قيمة التاريخ :

والتاريخ بهذا المعنى ليس علم الماضي ، بل هو علم الحاضر والمستقبل ، فهو الذي يعطي الأمة الواعية الضوء لتستبين طريقها، والأمم دائماً تُهرع إلى تاريخها في لحظات محنتها ، حتى تستمدُّ منه الإلهامَ، والقوةَ النفسية، ومن هنا كان حرص عدونا على تزيف تاريخنا وتشويهه ، لتضليل الحاضر وإفساد الطريق إلى المستقبل ، وإجهاض موجة اليقظة المتزايدة ضد العدو التاريخي والقومي والحضاري.

## ما يتميز به التاريخ الإسلامي :

والتاريخ الإسلامي فوق ذلك يتميز بأنه تاريخ عقيدة وشرعة ، بأنه في حقيقته صورة الإسلام التطبيقية ، فالتاريخ الإسلامي هو الإسلام مطبقاً منقذاً واقعاً ، فإذا كان الإسلام موجوداً في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة ، فذلك كتشريع وهداية ، ولكنه كواقع عملي موجود في عمل الرسول -صلى الله عليه وسلم- والخلفاء من بعده ، ودول الإسلام التي

حملت رايته وانساحت به في الأرض ، وهذا يقتضينا أمرين :

أولهما - بذل مزيد من الاهتمام والجهد في البحث والدراسة ،  
والتمحيص والنقد، بحيث يتلامم الجهد المبذول مع شرف الموضوع وعلو  
قدره ، فليست روايات التاريخ حينئذ ، بأقلّ قدراً من روايات السنة في  
وجوب العناية بها وتمحيصها.

وثانيهما - أن نوقن بأن باحث التاريخ الإسلامي لا يمكن أن يدرك  
الأحداث التاريخية، وتتفتح أحاسيسه لحقائقها وأسرارها إلا بقدر إدراكه  
لطبيعة العقيدة الإسلامية ، وطريقة استجابة المسلمين لها. يقول الشهيد  
سيد قطب: « إن المعارك الحربية والمعاهدات السياسية والاحتكاكات  
الدولية، وما إليها ، مما يُعنى به التاريخُ غالباً أكثر من سواء -إنها كلها  
محكومة بعوامل أخرى ، هي التي يجب أن تبرز عند كتابة التاريخ- هذه  
العوامل هي التي يختلف الباحثون في تقديرها وإدراكها ، كلُّ يخضع  
للفلسفة التي تُسيطر على تفكيره وتقديره ، أي لطريقة إدراكه للحياة في  
عمومها.

وللباحث المسلم مزيةٌ هنا في دراسة الحياة الإسلامية ، لأن طريقة إدراكه  
للحياة تمتُّ بصلة إلى حقيقة هذه العوامل المؤثرة في سير التاريخ . ومن ثم،  
فهو أقدر على التلبس بها واستبطانها ، والاستجابة لها استجابة كاملة  
صحيحة.

فعلى هذا ، لن يستطيع باحثٌ غيرُ مسلم ، بل غيرُ مسلمٍ صادق الإيمان -  
لن يستطيع أن يدرك حقائق التاريخ الإسلامي وأسرارها ، لن يستطيع ذلك  
بالطبيعة ، لأنه معطل الحواس مشلول الإدراك . وأوضح مثال علي ذلك ما  
قاله المستشرق (مونتجمري واط) حين قال : إن محمداً صلى الله عليه  
وسلم، لم يكن يعتكف في غار حراء تعبداً ، وتأملاً ، وإنما كان يذهب إلى  
هذا الغار في رأس الجبل ليصطاف فيه ، حيث كان فقيراً لا يستطيع أن  
يذهب إلى الطائف مثلما يذهب أغنياء مكة.

حينما يقول هذا المستشرق ذلك ، فإنما يقول من موقع كُفره بالإسلام

ورسول الإسلام ، ومن هنا لم يستطع أن يستجيب للحادثة ، ولم يتفتح إدراكه لها ، فلم يجد لها من التعليل إلا ما يوافق نظرته المادية إلى الأمور وإدراكه لها ، بل يعنى عن الحقيقة وهي منه قاب قوسين أو أدنى ، بل هي بين يديه ، وأعني بذلك أن محمداً صلى الله عليه وسلم ، كان في ذلك الوقت زوجاً لخديجة رضي الله عنها صاحبة الأموال والتجارات ، إن لم نقل من موسرات مكة المعدودات ، وما أظنها كانت ترضن على هذا الحبيب ، الأمين صلى الله عليه وسلم بنفقات رحلة إلى الطائف، وما أيسرها . بل إن محمداً صلى الله عليه وسلم بعد ما عمل لخديجة في مالها ، ورواج تجارتها ببركته ، كان له من الأسهم في هذه التجارة ما يغنيه لو أراد .

ومثال آخر على ذلك الإدراك المنقوص ، لتعطل الروح والحس ما كتبه طه حسين في كتابه ( الشيخان ) فقد كانت عبارته التي يدفع بها الأخبار، هي قوله : « وأكاد أشك » و « أنا أشك » و « أنارأرأفض » و « أنا أكاد لا أصدق » ونحو ذلك ، فإذا جاء خبر عن قائدٍ من قواد عمر بن الخطاب حسداً القائدَ الآخرَ على كثرة ما غنمت كتيبته ، فطلب من عمر أن يأذن له أن يهاجم هاتيك القرى ، حتى ينال حظاً من الغنائم مثل الذي ناله قرينه، فيأذن له عمر ، وتهتز نخوة القائد البطل طرباً وبهجم على القرى ويمزقها ، يباري قرينه في الغنائم ، حين تجري هذه الرواية على قلم الدكتور عميد الأدب العربي طه حسين - تتبخّر أدوات الشك وعباراته كلها ، فلا تقرب واحدة من هذه العبارات هذا الخيرَ ، بل يذكره بصيغة الصحة والجزم والقطع .

فقطعنا ذلك لا يكون إلا من نقص الإدراك ، ونقص الاستجابة بالتالي ، ولو كان لديه الإدراك الكامل السليم ، لأدرك الروحَ التي كانت تحكم هؤلاء الأطهار ، ولعلم أن هذه الرواية أولى بكل أدوات الشك التي بعثها في كتابه ، ولو أدرك أن هؤلاء هم الذين تربوا في مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم ووعوا قوله: « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فذلك في سبيل الله » . فما بال القتال في سبيل الغنائم، ولو وعى أبسط الحقائق النفسية، لأدرك أن من يقاتل في سبيل الغنائم لا يدوم له نصر ، ذلك أنه يكون معلق القلب والبصر بما خلفه وراء من مال ، وبما يبغيه من أيدي عدوه ، ومثل ذلك

لا يدوم له نصر ، وإن كسب معركة أو أكثر ، ثم الأذى أن يُسند الإذن بالقتال إلى عمر رضي الله عنه ، الذي كان يتمنى أن بين المسلمين وبين الفرس جبلاً من النار لا يعلونه ولا يعلوه. والذي كان يكره الحرب والعجلة فيها ويقول : «إن الحرب لا يصلحها الرجل العجول » فتعمى البصائر وتؤكد أن عمر كان يأذن لقواده بغزو القرى من أجل المال والغنائم.

## وسائل تشويه التاريخ الإسلامي

وفي إيجاز سريع نشير إلى وسائل هذا التشويه :-

- ١ - التركيز على الفزوات والمعارك وكأنها هي كل تاريخ الإسلام.
- ٢ - عدم إعطاء هذه المعارك حقها من التفسير والتعليل ، وبعث الجو الذي جرت فيه والدوافع التي أدت إليها.
- ٣ - ذكر تفسير ودوافع للأعمال العسكرية أقل ما توصف به أنها خبيثة.
- ٤ - ذكر أحداث في صورة أكبر من حجمها.
- ٥ - بتر الأحداث واختيار جوانب منها عند روايتها لتؤيد رأياً معيناً .
- ٦ - سوء التعبير الذي يصل إلى حد البذاءة.
- ٧ - التناقض بين بعض الدراسات وبعض.
- ٨ - استخدام الدراسات الأدبية واللغوية مجالاً ليث السموم وتشويه التاريخ .

وسنعود -إن شاء الله لتفصيل- كل واحدة من هذه بقدر الجهد والطاقة.  
والله ولينا هو نعم المولى ونعم النصير.